# حديث السراي

"القلعة التي شهدت أحداثا تاريخية كثيرة، كانت قديماً مفصولة عن المدينة بخندق عريض يحيط بها من ثلاث جهات، وكانت تواجه الميناء الواسع ببنائها المربع الضخم، وتحمي المدينة من البر والبحر.

أما من الداخل فتحتوي على بعض المساكن الصالحة، الخاصة بالحاكم والضابط والحامية، كما تحتوي على بعض آبار المياه المالحة، والمطاحن اليدوية، وأساساتها قائمة على أعمدة جرى وضعها بطريقة أفقية وعموديا يمكن أن تكون من بقايا العهد الروماني".

كريستانزيو بيرنيا – مؤرخ وصاحب كتاب طرابلس من 1510 الى 1850

"وأما ما يخص الأبنية العامة، فنود أن نذكر مَعْلَم طرابلس الرئيسي وهو القلعة، تشكل القلعة مبنى منفصلا عن سور المدينة، ذا منظر جذّاب، بها مدافع من بينها مدفع يعود لسنة 1144م وهي من إحدى جوانبها تطل على البحر ومن جانب آخر تطل على ميدان واسع، وتوجد بداخلها مطبعة بحروف تركية وعربية، جرى استيرادها من إسطنبول، تطبع هنا جريدة (طرابلس الغرب) وهي جريدة تركية عربية تصدر مرة كل أسبوع، وفي القلعة مدرسة صغيرة لأبناء العسكريين، وفناء، وقاعات، ومكان للموسيقيين".

الأمير النمساوي لودوفيك سلفاتور – زار طرابلس سنة 1873 م



"طرابلس مدينة سحر، بيضاء كأحلام الجنة، مزركشة بحواش من النخيل و الزيتون و ذات جذور عميقة في ذكريات القرون، لقد كان حظ طرابلس منذ بدء التاريخ تجارب متنوعة، إنها واحدة من أقدم المدن في العالم.

لو تكلمت جدران هذه القلعة الصامتة، فستكشف سنوات من التاريخ غير المكتوب وغير المحفوظ، المليء بالعاطفة والبطولة والقسوة وخيانة الحياة، وفي إحدى الزيارات للباشا اقترح أن يرينا القلعة، وقد كانت ممتعة امتاعا لا حد له، من حجرات الاستقبال حيث كانت تقدم القهوة والمرطبات التركية، إلى السطح الذي يشرف على الخليج والملاحة والرمال".

مابيل لومس تود – فلكية ورحالة زارت طرابلس سنة 1900 م

"لقد وجدتها أكبر جدا مما كنت أظن، ورغم أن الذين يطرونها يتحدثون عنها حديثا طيبا، فأنا أؤكد أنهم لم يقولوا نصف الحقيقة.

ومن بين المدن الكثيرة التي رأيتها في العالم، لم أر مدينة تماثلها في قوتها ونظافتها، حتى إنها لتبدو كمدينة امبراطورية وليست مدينة لا تنتمي إلى أي ملك خاص".

من رسالة الكونت "بيترو دي نافارا" أحد قادة الإسبان الذين احتلوا طرابلس إلى نائب ملكه في يونيو – 1510م.

قال لي صديقي رايلي وهو يشير إلى فتحة في جدار القلعة تم سدها بالطوب، هل ترى تلك البقعة على الجدار؟ .. في إحدى فترات الظهيرة كنت أمر من هذا المكان وأنا راجع من السوق عندما ظهر رجل رث الملابس وغريب المنظر على الطريق هناك، وكان يتصرف بصورة غريبة، يبدو وكأنه يخشى أن يمشي منتصبا.

وعلى الرغم من أن الوقت كان منتصف النهار فإن الرجل كان يتحسس طريقه كالأعمى، تجمع بعض الناس وسرعان ما وصل الحراس الأتراك إلى المكان وأخذوه إلى القلعة التي جاء منها.

نعم لقد خرج عبر ذلك الجحر الذي تم تطويبه الآن، لقد ظل الرجل هناك لسنين طويلة في إحدى الزنزانات تحت الأرض، لقد مكث هناك زمنا طويلا ولكنه تمكن من الحصول على آلة حادة حفر بها طريقه إلى الخارج، ولو أنه خرج في مثل هذا الوقت من اليوم (مساء) أو بالليل لتمكن من الهرب! عندما خرج من الظلام أعمته أشعة الشمس كما أن القيد الذي على رجليه كشف أمره، مالم يكن الرجل قد مات فهو بلا أدنى شك هناك .. على بعد بضع ياردات من مكاننا هذا، ولكن على الجانب الآخر من السور"

تشارلز ويلينغتون – كاتب ورحالة أمريكي زار طرابلس سنة 1904 م



يعود بناء قلعة طرابلس إلى العصر الروماني، وكان يطلق عليها أحياناً اسم (الِحصار) والآن تغلب تسميتها بالسراي، وقديما كان يحيط بالقلعة خندق متصل بالبحر، كما نستشف من تقرير لوفد فرسان القديس يوحنا يقول:

"طرابلس صافية الأديم و هواؤها صحي و هي غير معرضة للإمراض السارية و يبلغ محيط سورها 3728 خطوه ثلثاه يطل على البحر و الثلث الأخر يشرف على البحر، و يحيط بالقلعة خندق عرضه 44 خطوة و عمقه قصبتان". وقد ردم الخندق في أوائل القرن الثامن عشر.

ومدينة طرابلس القديمة، كانت مدينة مسوّرة، ذات بوابات .. منها باب المنشية وباب الخندق وباب البحر وباب زناتة، والباب الجديد الذي فتح سنة 1870 وكانت الأبواب تقفل بعد الغروب، وإضافة إلى ذلك كان للمدينة أبراج أو حصون، ذكر منها المؤرخون حصون الشعاب والحميدية والكرمة والدباغ وحصن دار البارود والتراب والهدار وحصن المندريك حيث موقع الفنار".

د. محمد محمد المفتي

"مـن البحـر تقابلك السـراي مباشـرة، ولا يفصلها عنـه طريـق مثـل بقيـة المدينـة، ويحيـط بهـا سـور لا يقل سـماكة عـن أسـوار التحصينـات، إن منظـره رهيـب، وممـا لا شـك فيـه أنـه جعـل منهـا فـي الماضـي قلعـة لا تقهـر، وبداخلـه قصـر حيث يقيم الباشـا العثمانـي، وحيث كان يقيم القرامانليون المسـتقلون فـي السـابق، وواجهـة هـذا القصـر تشـهد خليطـاً رائعـاً مـن النوافـذ الصغيـرة والكبيـرة والفتحـات الموجـودة علـى ارتفاعـات متباينـة، والحـق أن جميـع الرحاليـن يؤكـدون المنظـر الرائـق لمدينـة طرابلـس مـن الخـارج، وعلـى وجـه الخصـوص مـن البحـر، أسـوار المدينـة البيضـاء الوضـاءة ذات العرصـات والأبـراج الصغيـرة.

كتلـة السـراي الخلابـة ذات الشـكل غيـر المنتظـم عـن يسـار المدينـة، والحصـن القائـم علـى لسـان صخـري بـارز داخـل البحـر عـن يمينهـا، والبيـوت القائمـة بينهمـا جميعهـا ذات سـطوح مسـتوية، وتعلـو مـن بينهـا القبـاب ومـآذن الجوامـع والزوايـا والمـدارس علـى شـكل أعمـدة، هـذه العناصـر تشـكل منظـراً كليـاً تدعـه الشـمس الإفريقيـة يبتسـم، وينعكـس علـى سـطح البحـر المتوسـط الأزرق .. إنهـا ولا شـك فـي هـذا منظـر أخـاذ لا نجـده إلا فـي القليـل مـن مـدن الشـمال الإفريقـي".


الرحالة الألماني ألبارون هنريك فون مالتسن – زار طرابلس سنة 1869م

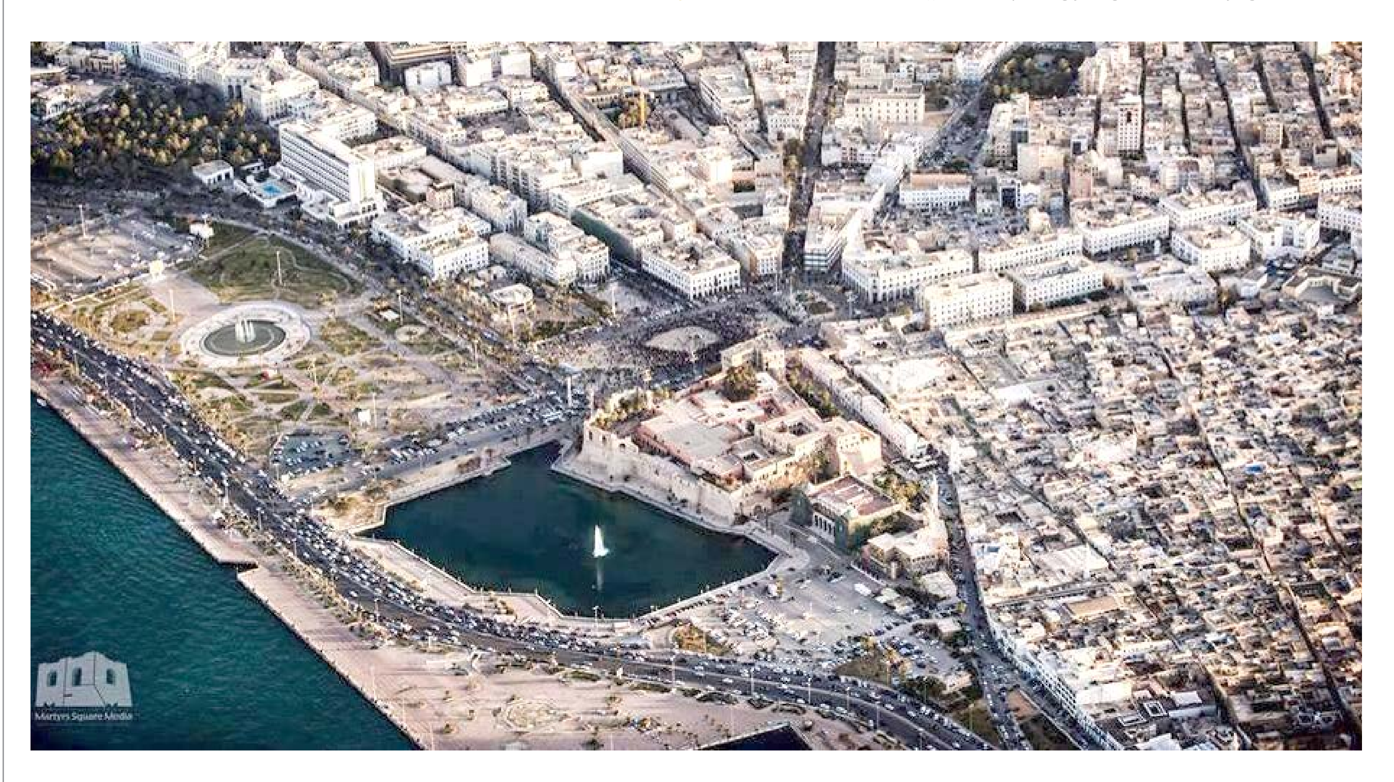


"القلعـة هـي أهـم بنايـة فـي مدينـة طرابلـس، وهـي تمثـل كل الحقـب التاريخيـة التـي شـهدتها ليبيـا، يقـول البعـض أن مـن بناهـا هـم الإسـبان فـي القـرن السـادس عشـر، لكـن الآثـار المتبقيـة منهـا تـدل علـى أنهـا أقـدم مـن ذلـك بكثيـر، جدرانهـا الخارجيـة عاليـة وسـميكة لأن القـلاع فـي القـرون الوسـطى كانـت حصونـاً منيعـة ضـد الهجمـات التـي تأتـي مـن البحـر أو اليابسـة.

دخلنا إلـى غرفـة خاصـة بالأرشـيف فـي القلعـة .. إنـه مـكان عجيـب حقـاً عندمـا وصلنـا إليهـا جوبهنـا برائحـة تحمـل عبـق الحقـب التاريخيـة التـي تعاقبـت علـى هـذا المـكان، كنـا نسـير علـى أرضيـة مغطـاة بالوثائـق والمخطوطـات، وقـد كـدس جـزء منهـا علـى جوانـب الغرفـة فارتفـع حتـى وصـل إلـى السـقف".

إيثيل براون - 1914

"ويرجع الشكل الحالي العام للقلعة أو السراي إلى الأعمال التي قام بها الإسبان حيث بنوا أو جددوا الحصن أو البرج الجنوبي الذي اسموه حصن القديس جورج الذي يقابل والذي يشبه في شكله مقدمة السفينة، كما بنوا الحصن الغربي الذي اسموه حصن القديس يعقوب و الذي يقع حالياً قرب برج الساعة، وهذين الحصنين أو البرجين يواجهان المدينة حيث يسكن الأهالي المقاومين لهم، وهناك جدار ضخم يمتد بين الحصنين و يشكل الجانب الجنوبي الغربي للقلعة و يمتد هذا الجانب مسافة 130 مترا، و يتوسطه المدخل الرئيسي للقلعة، وهناك جدار آخر يشكل الجانب الجنوبي الشرقي يمتد مسافة 140 مترا و الذي ينتهي ببرج اطلق عليه فرسان مالطا الذين بنوه اسم القديس جاكمو، ويجاور هذا الجدار ساحة اطلق عليها الإسبان ساحة القديسة باربرا التي يطل عليها مسكن الوالي و مخزن الذخيرة، كما يوجد جدار على الجانب الشمالي الشرقي يمتد لمسافة 115 مترا، إضافة إلي الجدار الشمالي الغربي الممتد مسافة 90 مترا الذي يتوسطه من الداخل كنيسة بناها فرسان مالطا عرفت باسم كنيسة ليوناردو، وبهذا فان السراي تتكون من أربعة أضلاع وتشغل مساحة 13 ألف متر مربع تقريباً، استقرت بها الحامية الإسبانية المعتدية الذين شيدوا اغلب مبانيها من حجارة سور مدينة طرابلس و بعض مباني طرابلس الأخرى، وعندما زار الحسن الوزان (ليو الأفريقي) طرابلس وصف السراي بأنها ذات أسوار ضخمة ومزودة بمدفعية". د. خالد الهدار




"إن طرابلس أو أويا كما كانت تعرف لدى القدامى، أصغر من تونس ومن الجزائر، لكنها تفوقهما من حيث النظافة، وتحيط بها أسوار شامخة تعلو على كل مباني المدينة، وعلاوة على ذلك تحميها بطارية مدفعية مهيئة على شكل نصف دائرة، كما توجد قلعة وتحصينات ومتاريس تحمي مدخل الميناء".

باولوس إيفالد - مبشّر ألماني زار طرابلس سنة 1835 م